

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج

مدنية، وهي مع البسمة تسع وسبعون آية وعشرة ركعات*

هذه السورة مكية ومدنية عند علماء تاريخ القرآن الكريم.. أي أن بعض آياتها نزلت بمكة وبعضها بالمدينة. فالآيات رقم ٢٠ إلى ٢٢ مدنية عند ابن عباس ومجاهد. كما أن الآية رقم ٢٣ أيضاً مدنية عند ابن عباس.. أي أن أربعاً من آياتها مدنية عنده ﷺ. بينما يرى الضحاك أن هذه السورة مدنية كلها. (تفسير القرطبي)

الترتيب والربط: من حيث الترتيب القريب، تكمن صلة سورة الحج بسورة الأنبياء في أن الموضوع الأساس الذي تعالجه سورة الأنبياء هو أن العذاب لم يزل ينزل بالدنيا جرّاء عصيان أهلها، وهذا يدل على أن بإمكان الإنسان أن ينال النجاة باتباع الصراط الصحيح. كما بين الله تعالى لنبيه ﷺ في سورة الأنبياء أن قومه أيضاً يتعرضون للعذاب، حيث ختم الله تلك السورة بقوله ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.. علماً أن الضمير في ﴿قَالَ﴾ راجع إلى محمد رسول الله ﷺ. فكان الله تعالى كان قد علّم رسوله ﷺ هنا. وقد جاء الجواب على دعائه هذا في سورة الحج حيث استهلها الله تعالى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.. أي أيها الناس قد شرع رسولنا

* بالإضافة إلى تقسيم القرآن الكريم إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضاً إلى ركعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وإندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي. (المترجم)

الآن في الدعاء للعذاب، فإذا أردتم النجاة فأصلحوا أنفسكم وادعوا للنجاة من العذاب.

أما بالنظر إلى الترتيب الممتد الموجود بين عديد من سور القرآن فإن هذه السورة تكملة لمضمون السور: مريم وطه والأنبياء. ذلك أن سورة مريم قد تناولت مبادئ المسيحية مع الرد عليها، لأن صدق محمد رسول الله ﷺ ما كان ليثبت بدون الرد على المسيحية. فقد كانت دعوى محمد ﷺ ذات شقين: أولهما أنه ﷺ جاء بشريعة جديدة، وثانيهما أنه ﷺ رسول الله إلى الناس جميعاً. فإذا كانت المسيحية قائمة بصورتها الأصلية عند بعثة النبي ﷺ، فهذا يعني أنه كان في الدنيا دين حق صالح للعمل، ولم تكن هناك حاجة لنزول أي شرع جديد للأمم كلها؛ إذ لو كانت المسيحية عندئذ ديناً حياً، لما كان المسيحيون بحاجة إلى دين الإسلام.

إذاً، فسورة "مريم" جاءت تردّ على مبادئ المسيحية، وتحدث عن ولادة المسيح ﷺ وحقيقة دعواه وأحواله، مؤكدةً أنه لم يكن إلا كباقي الأنبياء. أما سورة "طه" فأسهبت في الرد على ادعاء المسيحيين بأن الشريعة لعنة (رسالة بولس الأولى إلى أهل غلاطية ٣: ١٣). وأما سورة "الأنبياء" فتناولت هذا الموضوع بأسلوب آخر حيث بين الله تعالى أنه إذا كانت نجاة الإنسان من "الخطيئة الموروثة" مستحيلةً بدون المسيح، فلماذا بُعث الأنبياء بهذه الكثرة ولمدة طويلة قبل المسيح، ولماذا تعرض أعداء أولئك الأنبياء للعقاب؟ لقد كان الإنسان مسيراً نتيجة "الخطيئة الموروثة"، والمسير لا يعاقب!

أما في سورة الحج فقد بين الله تعالى أنه إذا كان المسيح الذروة في الروحانية، فما كان ينبغي أن يأتي بعده أي نبي ولا أي شرع؛ لأن المسيح كان هو الأكمل، ولأن الشرع كان قد أُلغي. ولكن شخص محمد رسول الله ﷺ قد أبطل هذا الادعاء. ومن البراهين الدالة على صدقه ﷺ أولاً أن أعداءه سيهلكون كما هلك أعداء الأنبياء الذين خلوا من قبله. وثانياً أن تعليمه ﷺ يحتوي على أمور ضرورية ذات حكمة. وثالثاً أن الذين يؤمنون به ﷺ سيحرزون الرقي روحانياً ومادياً.

ورابعاً أنه ﷺ سيتلقى البركات من السماء بشكل خارق. وخامساً أن أتباع الملل الأخرى بما فيها المسيحية سينهزمون جميعاً على يده ﷺ.

ملخص محتوى السورة: قد أُنذر الله تعالى في مستهل هذه السورة من عذابه الذي سيحل بأعداء محمد رسول الله ﷺ. هذا ملخص قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ..﴾ إلى قوله ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

ثم بين الله تعالى أن محمداً ﷺ يملك البراهين، وأن الدعاوى الفارغة لا تصمد أمام البراهين. هذا ملخص قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ إلى قوله ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾.

بعد ذلك أخبر الله تعالى أن محمداً ﷺ يحظى بتأييدات سماوية، فكيف يأمل العدو، أيًا كانت ملته، في التغلب عليه؟ هذا ملخص قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ..﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾.

ثم إن تعليم محمد ﷺ يدعو إلى السلم وأنه تعليم مبارك، في حين أن تعليم معارضيهِ ضار، فكيف يصمد تعليمهم أمام تعليمه؟ هذا ملخص قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا..﴾ إلى قوله ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

ثم بين الله تعالى أن محمداً ﷺ مصداقٌ للجزء الثاني من دعاء إبراهيم عليه السلام، فكيف يمكن أن يفشل، إذ إن فشله يُعتبر فشلاً لإبراهيم. هذا ملخص قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ..﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

لا شك أن محمداً ﷺ هدفٌ لمعارضة شديدة الآن، وأنه قد صبر طويلاً، ولكن الله تعالى سيأذن له بالدفاع، وينصره ويكتب له الفتح - علماً أن المسيحية لا تجيز حتى الدفاع (متى ٥: ٣٩)، وهنا عُقدت مقارنة وجيزة بين تعليم الديانتين - وأن مصيره ﷺ سيكون كمصير من سبقه من أولي العزم من الرسل. هذا ملخص

قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْتِهِمْ ظُلْمًا..﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ثم بين الله تعالى أنه لا بد للأنبيا كلهم من مواجهة المعارضة، وأن الشيطان يعيق طريقهم، ولكن الله تعالى يزيل كل العوائق دائماً ويجعل رسله غالبين، وهذا ما سيفعله هذه المرة أيضاً. إن محمداً رسول الله ﷺ سيتغلب على الأديان كلها، وسيوضح للعيان، وبمناسبات شتى، أنه ﷺ على الدين الحق. هذا ملخص قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ..﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

ثم بين الله تعالى أن الحرب الدفاعية جائزة، بل أعلن تعالى أنه سينصر الذين يحاربون دفاعاً عن الدين، ولولا ذلك لهُزِمَ الحق في العالم. هذا ملخص قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا..﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

ثم يخبر الله تعالى أن الهدى إنما ينزل ليكتب له النجاح كماء الغيث الذي ينزل لينضّر الأرض ثانية. كما بين الله تعالى أن الهدى حين يكمل دوره يصبح غير نافع ولا يقوى على الصمود أمام الهدى الجديد. هذا ملخص قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً..﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. وإن أكبر دليل على ذلك هو أن الهدى الخاص بفترة يفقد التأييد الإلهي نتيجة تسرّب أفكار الناس إليه وجرّاء فشله في سد ضرورات العصر الجديد. لو كان ذلك الهدى لا يزال يتمتع برضا الله تعالى لكان لزاماً أن يتلقى التأييد الإلهي كما كان يتلقاه من قبل. مما يجعل أصحاب الهدى السابق يريدون أن يأخذوا قضية عقاب الناس في أيديهم بدلاً من أن يتركوا هذا الأمر لله تعالى، ولكنهم يفشلون في ذلك لحرامهم من النصر الإلهية. هذا ملخص قوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا..﴾ إلى قوله ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

ثم أخبر الله تعالى أن الديانة السابقة التي كانت تحظى بنصرة الله في الماضي تصبح عديمة الجدوى كليةً إزاء التأييد الإلهي، ولا ينتصر إلا صاحب الهدى الجديد

الذي يرتفع الصوت الرباني في حقه. هذا ملخص قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ...﴾ إلى قوله ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

وبما أن محمداً ﷺ هو الموعود الجديد فلا بد أن يكون نصر الله حليفه، فالخريّ باتباعه أن يطيعوه طاعة كاملة ليكونوا من الفائزين. عليهم أن يتذكروا أن النبوءات السابقة تدعمهم، فليس رسولهم رسولاً موعوداً فحسب، بل إن أمته أيضاً أمة موعودة، فلا بد أن يكونوا من الفائزين بنصر الله تعالى. هذا ملخص قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا...﴾ إلى قوله ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.